صيحة المعرفة المسلمة

العدد : ٢١٩ الموافق في محرم ١٤٢١ هجري ٥ / ٢٠٠٠ ميلادي

عنوان المقال : طلب العلم فريضة على كل مسلم	بقلم : أم ياسر

حصلت إحدى أخواتنا بجدارة على شهادة جامعية عالية في التربية وعلم النفس والاجتماع ، بعد اجتهاد وبحث وجد ، أقامت صويحبات لها حفلاً بهذه المناسبة ، وطلبن من ابنتي قبل الحفل - وهي التي تتقن الرسم والخط - صنع لوحة فنية تعبر باسم الجميع عن هذه المناسبة . استعانت ابنتي بدورها بي لاختيار آية كريمة أو حديث شريف يتصدر تلك اللوحة . أول ما تبادر لذهني قوله تعالى : { ... **يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات** ... } [المجادلة : ١١] أعجبت الآية ابنتي لكنها استطردت - وهي التي تربت في بلاد الغرب ونشأت والحمد لله على طاعة الله - قائلة : إن هذه الآية رائعة حقاً ، وتعبر حق التعبير عن هذه المناسبة ، لكنها خاصة بالعلم الشرعي ، وأختنا قد حصلت على شهادة في علم دنيوي ، بمعنى أوضح : ليست شهادة في العلوم الشرعية التي ترفع صاحبها إلى أعلى الدرجات ، فكيف نكتب هذه الآية ؟!! .

أجبتها : يا بنتي ، إن عصرنا هو عصر العلم والمعرفة ، والتقدم والتكنولوجيا ، والكشوف والفضاء ، والكومبيوتر والانترنت ، هذه الوسائل التي جعلت العالم قرية صغيرة يمكن التواصل ونقل المعرفة بين أرجائها خلال دقائق - إن لم نقل خلال ثوان - والإنسان إذا لم يكن في سباق مع الزمن لتلقي هذه المعارف والعلوم فإنه سيبقى في نهاية الركب ، بل سيتخلف عنه . وديننا الحنيف قد حثنا على طلب العلم ، وبين فضله في الكتاب والسنة ، والآية التي بين أيدينا خير دليل ، وطلب العلم الشرعي فريضة لقول نبينا ﷺ : (طلب العلم فريضة على كل مسلم) ، وإن الله تعالى ييسر لطالب العلم إذا قصد في طلبه وجه الله تعالى والانتفاع به والعمل بمقتضاه فيكون سبباً لهدايته ولدخول الجنة ، فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (... ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة) رواه مسلم . وإنه لا طريق إلى معرفة الله وإلى الوصول إلى رضوانه ، والفوز بقربه ، ومجاورته في الآخرة ، إلا بالعلم النافع الذي بعث الله به رسله وأنزل كتبه ، فهو الدليل عليه ، وبه يُهتدى في ظلمات الجهل والشكوك ، ولهذا سمى الله تعالى كتابه نوراً فقال : { ... **قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ۞ يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم** } [المائدة : ١٥-١٦] . وما أروع كلمات التي معاذ بن جبل رضي الله عنه : (تعلموا العلم ، فإن تعلمه لله خشية ، وطلبه عبادة ، ومذاكرته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه صدقة ، وبذله لأهله قربى) .

من زاوية أخرى ، لا شك أن ذكر كلمة « العلم » فيما ورد لها مدلولات أخرى مفادها : تحصيل العلوم بأنواعها الدينية والدنيوية ، وإن تنوع العلوم والمعارف هو لا شك سبب استمرارية التعايش بين الناس ، فمن خلال هذا التنوع سخر الله الناس ليقوم بعضهم على خدمة بعض ، ولتتكافأ الجهود في تقدم الحياة الإنسانية باستمرار ، ويتمثل ذلك في قوله تعالى : { **أهم يقسمون رحمت ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ورحمت ربك خير مما يجمعون** } [الزخرف : ٣٣] .

والحكماء قد قالوا : " اطلبوا العلم ولو في الصين " . إذن فلا بد من السعي إليه والاغتراف من منهله ، فهو كالبحار التي تحتوي في أعماقها النفائس واللآلئ من شتى الأشكال والألوان ، وما على الإنسان إلا الغوص في الأعماق لتحصيل هذه الكنوز ، وكلما استزاد منها أصبح من أغنى الأغنياء ، وأعظم الغنى : غنى العقل واستنارة الفكر والوجدان ، منها تسمو مكانة الإنسان وتجعل الناس يحترمونه ويحتكمون إليه .

والله عزَّ وجلَّ جعل كل عمل يقوم به الإنسان يبتغي بذلك وجه الله عبادة ، فالتبسم للآخرين صدقة ، وإماطة الأذى عن الطريق صدقة ، واللقمة يضعها في فمه لتقويه على طاعة الله صدقة ، بمن أمضت شطر حياتها في تحصيل علم دنيوي ينفعها في خدمة الإسلام وفي سلوك درب الدعوة كعلم التربية .

ولا بد في نهاية المطاف من التأكيد على ضرورة التعلم للمرأة ، ديناً ودنيا ، فهي نواة الأسرة ، والنساء شقائق الرجال ، ولما كان وراء كل رجل عظيم امرأة عظيمة ، فلا بد أن تكون تلك المرأة العظيمة على درجة من العلم والفهم والدراية ، لتعي واقعها ، وتدرك واجبها ، وتقوم بمهمتها كمربية ، وزوجة ، وداعية أحسن قيام . وما أصيب الإسلام إلا بسهم المرأة ، وما وصلنا إلى ما وصلنا إليه إلا بجهل المرأة وحرمانها من العلم وإفسادها ، وبالتالي إفساد الأجيال التي تربت على يديها .

والغرب ينظر إلى المسلمة بازدراء ، والمحجبة في قاموسهم هي العاملة والمنظفة التي تجهل لغتهم ولا تعرف منها إلا نعم ، ولا ، وشكراً !! . أو هي ربة البيت التي تعيش فقط للإنجاب ، وطهو الطعام ، وتنظيف البيت ، تحت قهر زوج - بنظرهم - ظالم متجبر .

والمرأة اليوم مطالبة أكثر من أي وقت مضى أن تثبت دورها العظيم في بناء المجتمع ، في كل مجتمع ، بعزة الإسلام وإبائه ، ولن يكون لها ذلك إلا بالعلم والمعرفة ، وحضورها في كل ميدان ، وبمشاركتها في كل مجال وعلى كل صعيد .

كم يؤلم المرء أن يجد بين نساء المسلمين في وقتنا الحاضر من تجهل مأساة فلسطين واغتصابها من قبل الصهاينة وهي قضية ملأت الآفاق وعرفها القاصي والداني ، وكم يحزنه أن يرى مسلمة ظنت معرفة الكتابة هي منتهى العلم والثقافة ، وأخذت تتبجح على صديقاتها الأميات بهذه الثقافة !!

إن واجب التوعية والدعوة بيننا أولاً - نحن معشر المسلمات - كبير ، يحتاج إلى مضاعفة في الجهود ، وبذل أكثر الوقت للنهوض بالمرأة المسلمة في ديار المسلمين جميعاً ، وفي ديار الغرب خاصة ، لأنه ينظر إلى الإسلام من خلال شخصيتها ، فلا بد لها من التميز بقوة الإسلام لتأخذ مكانها في الريادة .

ذهبنا في اليوم التالي إلى ذلك الحفل البهيج ، كان أجمل ما يربطنا أخوة الإسلام مع اختلاف أجناسنا وبلادنا . تصدرت الآية الكريمة المجلس ، وكان فرحنا كبيراً تميز عن كل فرح ، وخاصة عندما طُلب من صاحبة الحفل الحديث ، وسردت علينا كيف تم حفل التكريم في الجامعة ، فقالت في ختام كلامها : عندما نودي إليَّ لتسليمي الشهادة ، وتقدمت إلى المنصة ، كنت أمشي بخطوات واثقة ثابتة قوية ، كنت المحجبة الوحيدة في الدفعة ، شعرت لحظتها بعزةٍ تفوق الجبال شموخاً وكبرياءً بين نظرات الإعجاب من أساتذتي وزملائي .. إنها عزة الإسلام.